ثالثًا: الوصايا العشر[1]

(1) وردت فى سفر التثنية، عبارة «عسيرت هادبروت»، أى «الكلمات العشر» التى كتبت على لوحى حجر حيث يقول «وأخبركم بعده الذى يأمركم أن تعملوا به الكلمات العشر وكتبه على لوحى حجر» (تثنية 13-4) ووردت العبارة نفسها تقريبًا فى سفر الخروج «فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر» (28-34)، وفى اللغة الإنجليزية أحيانًا بين تعبير Ten commandments وكلمة Decalouge: فتستخدم العبارة الأولى «تنطبق باسم الرب إلهك لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلًا» احفظ يوم السبت لتقدمه كما أوصاك الرب إلهك سنة أيام تشتغل وتعمل جميع أعمالك فى ستة أيام (14) وأما اليوم السابع فسبته للرب إلهك لا تعمل فيه عملًا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك أمتك وثورك وحمارك وكل بهائمك ونزيلك الذى فى أبوابك لكى يستريح عبدك أمتك مثلك (15) واذكر انك كنت عبدًا فى أرض مصر فأخرجك الرب إلهك من هناك بيد شديدة وذراع ممدودة لأجل ذلك أوصاك الرب إلهك أن تحفظ يوم السبت (16) أكرم أباك وأمك كما أوصاك الرب إلهك لكى تطول أيامك ولكى يكون لك خير على الأرض التى يعطيك الرب إلهك (17) ولا تقتل (18) ولا تزن (19) ولا تسرق (20) ولا تشهد على قريبك شهادة زور (21) لا تشته أمره قريبك ولا تشته بيت قريبك ولا حقله ولا عبده ولا أمته ولا ثورة ولا حماره ولأكل ما لقريبك. (سفر الخروج 5 - 10: 21) «تنطبق باسم الرب إلهك لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلًا» احفظ يوم السبت لتقدمه كما أوصاك الرب إلهك سنة أيام تشتغل وتعمل جميع أعمالك فى ستة أيام (14) وأما اليوم السابع فسبته للرب إلهك لا تعمل فيه عملًا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك أمتك وثورك وحمارك وكل بهائمك ونزيلك الذى فى أبوابك لكى يستريح عبدك أمتك مثلك (15) واذكر انك كنت عبدًا فى أرض مصر فأخرجك الرب إلهك من هناك بيد شديدة وذراع ممدودة لأجل ذلك أوصاك الرب إلهك أن تحفظ يوم السبت (16) أكرم أباك وأمك كما أوصاك الرب إلهك لكى تطول أيامك ولكى يكون لك خير على الأرض التى يعطيك الرب إلهك (17) ولا تقتل (18) ولا تزن (19) ولا تسرق (20) ولا تشهد على قريبك شهادة زور (21) لا تشته أمره قريبك ولا تشته بيت قريبك ولا حقله ولا عبده ولا أمته ولا ثورة ولا حماره ولأكل ما لقريبك. (سفر الخروج -5 10: 21).

عادة للإشارة إلى ما يسمى بالوصايا العشر التى وردت فى سفر الخروج (1-20) أو سفر التثنية (11-5)، أما كلمة العبارة الثانية فتشير إلى الشيء نفسه فى هذه الصيغة أو الصيغ الأخرى التى وردة فى العهد القديم، وهى كثيرة ومتنوعة، ولكن التعبيرين كثيرًا

إن المذهب الأخلاقى عند فيلون لا يمكن أن يستقيم على العلاقة الداخلية فحسب، وإنما هناك تشريع إلهى يحكمه يمكن أن يوجز فى الوصايا العشر التى أتى بها الكتاب المقدس فهو يرى «أن المصدر الحقيقى لكل هذه الشرائع هو الرب، وأن الإيمان والتدين هما المصدر الحقيقى للأخلاق»[1].

وقد استخلص فيلون من الشريعة التوراتية الوصايا العشرة ليصنع منها مذهبا أخلاقيا دينيًا، بالإضافة إلى ما بناه من نظرية فى الضمير وقد يرجع فيلون هذا المذهب الشرائعى إلى أسباب عدة كالآتى:

السبب الأول: لهذه الوصايا «هو أن الله أراد أن يعلم من يقرأون الكتاب المقدس درس عظيم وهو كيف يكون مطيعًا للشريعة، وليس الإنسان فحسب، بل كل الأمة وكل العالم، فهو عندما يمدح الإنسان الصالح يقول أنا هو ربك بالرغم من أنه رب كل العالم».

والسبب الثانى: أن الرب يؤكد أن ما يتحدث به للفرد الواحد المنفصل بذاته ليس ملزمًا للفرد ذاته فقط إنما ملزمًا للجموع الغقيرة، وأن حديثة المفصل للإنسان يكون للطاعة لأن يمكث فى الحشود لا يسمع النداء الأخلاقي. «

السبب الثالث: أنه يريد من الملوك وهؤلاء المتغطرسون لا يكرهون شخص بعينه، ويحاول أن يدرس فى مدرسة الشريعة الإلهية، ويتخلص عن غطرسته وفكره ويستبدلها بالعقل والعقلانية، لأن الله الخالق المتواضع وملك الملوك وأله الإلهه وخالق الكون لا يمكن أن يكره حتى أوضع

ما استخدما بشكل يفيد الترادف وهذه الوصايا كما وردت فى سفر التثنية «واصنع إحسانا إلى ألوف من محبي وحافظى وصاياى» تنطبق باسم الرب إلهك لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلًا»احفظ يوم السبت لتقدمه كما أوصاك الرب إلهك 134 سنة أيام.

(1) Philo: The Declogue, chxll, 52, p 33.

الناس، ولكن يدعو هذا الإنسان أن يستمع لهذه الشريعة المقدسة كما لو كان هو الضيف الواحد، ومن أصله فرح الرب وأعد الفرح له»[1].

والأسباب الثلاثة فى مجملها تؤكد قوة الوازع الدينى أو قدرة الله فى إعطاء شريعة للإنسان تكون ملزمة له، ما أنها تؤكد أن محور تفكير الرب هو الإنسان، فإنه لا يفرق بين الإنسان كما يضع الملوك، كما أن هذه الأسباب دعوة نحو الأخلاق المثلى موجهه للملوك كى يقتضوا بالرب خالق العالم، ويعلم الإنسان أن الله يحب الكمال، فهو إله الأصحاء وليس المرضى ولذا فإن طبيعة الرب تصدر وصايا خالية من أى عقاب للبشر، ويريد من البشر أن يختاروا بدون الشعور بالخوف، «وينطق بالوصايا العشر فى شكل محرمات بسيطة دون توقيع أى عقاب مثلما يفعل مشرعو القانون ضد من يخرقون القانون والشريعة البشرية»[2].

قسم فيلون هذه الوصايا إلى مجموعتين كل مجموعة تتكون من خمس شرائع فالمجموعة الأولى تدعى بالمجموعة السيادية وهى (ألا نعبد غير الرب، لا يعبد الإنسان الأصنام، لا تقسم بالله باطلًا، تقديس يوم السبت، طاعة الوالدين)، والمجموعة الثانية وتدعى بالتحذيرات (لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد زورًا، وكليهما يؤدى إلى سعادة الحياة ويهدفان إلى طريق واحد وهو سير النفس على الطريق بلا عوائق) وهى تبدأ من الوصايا الأقوى فى الإثم إلى أقلها، أى أنها تتدرج من الوصية الأولى التى لا يستقيم الدين بدونها وتنتهى بهجر الرغبة. وقد صاغ فيلون من عرضة لهذه الوصايا مذهبًا أخلاقيًا قائمًا على الدين.

(1) ibid: chx,37-40, p 25.

(2) ibid: ch x x x lll, 176, p 93.

المجموعة الأولى:

الوصية الأولى والثانية:

تدور هذه الوصية حول عدم عبادة الأوثان وعبادة الرب، أى أنها تنهى عن عبادة الأوثان وعبادة الرب الواحد بدلًا من التعددية وهاتين الوصيتين لا تنفصلان عن مفهوم الألوهية الذى ناقشناه سابقًا. ولكنه يحاول هنا أن يرسى دعائم المذهب الأخلاقى، وخاصة أن الأخلاق لا تستقيم بعيدًا عن اللاهوت، فالأخلاق مبنية على الإيمان بإله واحد.

وهاتان الوصيتان هما نقد لمنطق الإلحاد الكامن فى البشر الذين يعبدون أسماء أسموها بأنفسهم فعبدوها «عبدوا الأرض وأطلقوا عليها الإله «بلوتو» وأطلقوا على البحر الإله «بوسيدون» وعبدوا الهواء «هيرا»، والنار «هيفاستيس»، والشمس أبوللو، والقمر «أرتيمس»، وكذلك النجوم «أفروديت»[1] وهؤلاء ملئوا العالم بصور وأشكال مصنوعة من الخشب، وغير هما مما صنعت يد الإنسان من رسم ونحت وعبادة هذه الأوثان فصلت الروح عن الجسد ودنست صورة الله الأبدية.

إن هؤلاء مثل قائد المركب الذى يغيب من سفينته، وتفقد المركب اتجاهها وتسير بشكل عشوائى بلا هدف محدد، وكذلك النفس البشرية التى بدون مرشد يرشدها إلى الصواب تتخبط فى الحياة[2].

وإن كانت أدلة من يعبدون الأصنام هى أنه لا يوجد سبب مادى ـ أو برجماتيًا ـ إن جاز التعبير ـ على التسليم بوجود الإله الذى يقيم الأخلاق فى الإنسان أو بعبارة أخرى، أنه لا يوجد سبب غير مرئى أولا شعورى خارج نطاق ما تراه العين، إلا أن الإثبات الحقيقى لوجود الله يقع بين أيديهم،

(1) Ibid, ch x ll, 54, p 33 .

(2) ibid: chx iv, 68, p 41.

إن كان هؤلاء يمارسون شئون حياتهم من خلال الروح وهم لا يستطيعون إدراك هذه الروح واهبة الحياة للجسد، إن الذى أوجد الروح فى أجسادهم هو الله[1].

ويعنى ذلك أن فيلون يستند فى تأكيده الإيمان كمقوم للأخلاق ذلك الإيمان الذى لابد وأن ينبع من الإيمان بألوهية الصانع لهذا العالم. وفى هذا الصدد يستند إلى الدليل الكامن ـ الروح ـ للوصول على الذاتية المطلقة ـ الله وهذا الدليل الذى أبدعه فيلون لإثبات اللامتناهى الله ـ سيكون مسارًا لجدل الفلاسفة فى العصور الوسيطة والحديثة إلى أن يلقى حتفه على يد كانط[2].

إن من يصنعون الصور والنحوت يقدمون صلواتهم لتلك الصور التى قد صنعوها وكان من الأجدر أن يقدموا الولاء والطاعة إلى أيديهم التى صنعت

(1) ibid: chx iii, 61, p 37.

(2) حيث يرجع «كانط» الأدلة النظرية على وجود الله إلى أنماط رئيسية ثلاثة: الحجة الوجودية (الأنطولوجية) القائمة على فكرة الكائن الأكمل، والحجة الكونية (الكسمولوجية) القائمة على الإمكان، والحجة الفيزيائية ـ اللاهوتية المستمدة من الشواهد على نظام الكون. وهو يثبت استحاله تقرير على وجود الله من تحليل فكرة ماهيته، وهذا ما يحاول الدليل الوجودى أن يفعله، ثم يذهب بعد ذلك إلى أن الجهد الذى نبذله للوصول إلى الله بأن نبدأ من الأشياء العرضية (الممكنة) ومن النظام الكونى خليق بأن يفشل، اللهم إلا إذا لجأنا أخيرًا إلى فكرة الكائن الأكمل، ولكن هذا معناه أن الدليلين الثانى والثالث يعودان إلى الدليل الأول، وبالتالى يشاركان فى عيبه الباطنى وعلينا كى نثبت إثباتًا صارمًا أن الكائن الضرورى موجود كامل كمالاً لا متناهيًا، وأن منظم العالم عقل لامتناه، علينا لكى نثبت ذلك أن نضع حلقة مثالية خالصة تتصل بفكرة الموجود الأكمل. وهكذا نجد أن الدليل الأنطولوجى يمكن وراء الأدلة الأخرى، وأنه يفسدها بصورة جذرية، فلا وجود إذن لدليل نظرية صحيح على وجود الله، انظر جيمس كولينز: الله فى الفلسفة الحديثة، ترجمة د/ فؤاد كامل، الناشر مكتبة غريب، القاهرة، 1973م ص 253.

تلك الصور إن كانوا يعتقدون أن ذلك حبًا للذات، أو بالأحرى يقدمون الطاعة والاحترام إلى الأزميل، المطرقة، القلم، أو الأدوات الأخرى التى قد استخدموها فى صنع هذه التماثيل[1]. «لأن الصانع أسير لما يصنع فى الزمن لأنه أكبر من الشئ الذى يصنع، وإن هؤلاء كانوا مصرين على خطيتهم، وجب على النحاتين والرسامين ان يعبدوا أنفسهم، ويقدموا لهم التكريم والتبجيل».

إن هذه الكلمات التى يقدمها فيلون هنا هى ثورة على المنطق المناقض للذات، أو قل ـ إن شئت ـ إنها ثورة على الأخلاق لقيام الأخلاق، أعنى، أنها ثورة لها مبررات وهى قيام الأخلاق على الدين بدلًا من قيام الأخلاق على الذات، حقًا: من يقرأ ذلك يجد أن فيلون يحاول أن يؤسس الأخلاق على ما ينبغى أن يكون عليه الفعل الأخلاقى، لأن من غير الأخلاقى أن يعبد غير الله.

إن هذا النقد الحاد لم يسير على عموميته عند فيلون فقد خص به «المصريين الذين صنعوا لأنفسهم آلهة، آلهة خاصة بهم إضافة للأصنام الخشبية والصور، فقد كانوا يعبدون الحيوانات كالثيران، الحدأة، والحملان، واخترعوا لتلك الحيوانات قصص وحكايات أسطورية، لربما قد عبدوها لمنفعتها، كحيوانات منزلية،أو لحراثتها الأرض، أو أنها تكسبهم بصوفها»[2].

وإذا كانت الأشياء تحسب بنتائج أفعالها فإن نتائج فعل الله على الإنسان أكثر بكثير مما يتوقع الإنسان لأن « من يعبدون هذه الأصنام أكثر تعاسة من الأصنام التى يعبدونها[3] «لأن هذه الأشياء صماء وليست سببًا للسعادة،

(1) Ibid: chx v, 72, p 43.

(2) Ibid: chx v,77, p 45.

(3) Ibid: chx,vl, 81, p 47.

بل هى سببًا للتعاسة، وإن كانوا يتمتعون بالسعادة المطلقة فإنهم يتمتعون بالسعادة بأعين لا ترى وأذن لا تسمع، وأنف لا تشم، أو فم لا يتذوق ولا يتكلم، وأيادى لا تأخذ ولا تعطى»[1].

مما سبق يتضح أن الوصية الأولى والثانية تعلن عن مبدأ أخلاقى عند فيلون مؤداه أن الإيمان بالله وعدم عبادة الأصنام هو المبدأ الأول لقيام الأخلاق وهذا الإيمان هو المصدر الوحيد لقيام السعادة، أما الإلحاد فيعنى الوقوع فى الشر والتعاسة، وإذا استمر الملحدون على ما هم عليه فإنهم يفقدون بصيرة عقولهم بشكل متعمد، فإنهم فشلوا فى الحقيقة الواضحة التى يمكن أن يعرفها أى طفل[2].

الوصية الثالثة:

هذه الوصية تقول: (لا تحلف باسم الرب كذبًا)، ولكى تدخل فى المذهب الأخلاقى قام فيلون بتحليل عقلية «القاسم أو الحالف» فإن الإنسان قد يحلف كذبًا ليحفظ ماء وجهه أو ليخفى عمل شرير[3] أن النفس التى تكذب تملك عقلًا لا يتمتع بالسلام وملئ بالبلبلة والتوهان وعدم التركيز، وهو دائمًا فى حالة اتهام ويعانى من التوبيخ، إن النفس يراقبها نفس بطبيعتها تميل إلى القيم الأخلاقية وتكره الشر، وتقوم بدور القاضى، وإذا قامت بهذا الدور تجعل النفس تجمل ذاتها، أى أن هذه النفس ـ القاضية ـ تحذر النفس من أن تسير فى مسارها وإذا استطاعت التغير فإن النفس تفرح وتنعم بالسلام وإذا فشلت فى التغيير فإنها تعلن الحرب عليها»[4].

ويعنى ذلك أن من النفس الحالفة نفس مشوشة وشريرة، وما يجعلها

(1) Ibid: chx v, 74, p 43.

(2) bid: chx iv, 70, p 49.

(3) Ibid: chx,ll, 87, p 51.

(4) Loc. cit.

تحلف هو أنها تحاول أن تخفى عملًا لا أخلاقيًا مستتر أو أنها تحاول إقناع الأخر عن طريق القسم، وافترض فيلون وراء النفس نفسًا أخرى تعمل كنفس ضابطة إذا حاولت أن تقوم الإنسان فى قسمة يشعر الإنسان بالسعادة وإن أخفقت يشعر الإنسان بالذنب، لأنه لا يريد أن يظهر بمظهر المخطئ فى نظر القانون[1].

إن الإنسان الذى يقسم عند فيلون «يحاول أن يجعل الله شريكًا له فى هذا القسم، لأنه يعتقد أن الرب لا أحد من البشر يلومه، بل إذا كان هذا القسم الكاذب منه فإن الجموع ستلومه ويكون فى نظرهم كاذب ويستحق العقاب، ولكن هذه الأفكار ولا تعبر عن شىء غير والإلحاد وعدم التدين»[2].

ولا يستطيع فيلون هنا أن يفهم كيف يشرك الإنسان الرب فى الكذب؟!» إذا كان صديقك يرفض أن يشاركك فى هذا العمل ـ الكذب ـ ويندم على أنه ربطته بك صداقة ويهرب من وجهك، فبالأحرى، أن تخجل من نفسك عندما تطلب هذا الشئ من الله صانعك وعلة وجودك فى الحياة، فهل تفعل هذا مع العلم بأنه يسمع ويرى؟ أم أنك تفعل هذا ولا تعلم وتجهل ذلك؟ فإن كنت لا تعلم فهذه جهالة، وإنك ملحد، وأنت تعلم أن الإلحاد هو أصل كل الشرور[3].

ومن أجل هذا الجهل بالقسم كذبًا يُفصل فيلون أنواع القسم، «فالقسم لا يكون بالقسم واللسان فقط، ويمكن أن يكون عن طريق ضميرك فتقول: (تعالى يارب وأشهد معى فى هذا العمل الكاذب واشترك معى فى عمل الشر) وتحلف باسم الرب كذبًا، لأنك تعتقد بهذا القسم أنك تحتفظ بماء

(1) philo: on special lawsll, chlll, ll, p 313.

(2) Ibid: ch lll, 12, p 313.

(3) philo: Decalogue, xvlll, go, p 51.

وجهك، ولكى تخفى عمل شرير بحلفائك القسم كذبًا فإنك تصل إلى قمة الإلحاد»[1].

صحيح أن فيلون هنا يجعل القسم الكذب يصل إلى مرتبة الإلحاد، ووصل به هذا الحد من التشدد فى الأحكام أنه لم يكتف بالحالة الظاهرة فى القسم الكاذب، ولكن هناك حالة أخرى باطنة قائمة على الضمير يحاول أن يشرك فيها الكاذب الله فى كذبه.

رغم هذا كله فإن فيلون يضفى مشروعية للقسم، حيث «لا يجب أن يكون الحلف كذبا طالمًا يتعلق بموضوعات لها منافع للإنسان وللشعب أو المصالح الخاصة، أو كإرشاد للحكمة والعدالة والبر، أما إذا كانت أهداف هذا القسم غير خيرة وتخدم الشر فإن الدين يمنعنا من أن نستخدم هذا القسم، لأن البعض يحلف بشكل عشوائى لتغطية أفعالهم الشريرة كجرائم الزنى والقتل، والسرقة والاغتصاب، ويعتقدون أنهم بمنأى عن العقاب»[2].

ونستخلص من هذه الوصية أن الحلف بالكذب هو عمل غير أخلاقى وهى وصية من صميم الدين، وتفرق بين المتدين وغير المتدين، أو بعبارة أخرى، تميز بين المؤمن والملحد. ونتيجة هذه اللاأخلاقية أن يأتى «العقاب من الرب أو من الإنسان، فإذا كان الجزاء من الرب، فإنهم يعانون طيلة حياتهم، إما إذا كان من الإنسان فهو إما الجلد أو الموت، والموت أقصى أنواع العقوبات، ويكونوا محظوظين إذا كان الجلد، على أن يكون الجلد فى مكان عام على مرآة من الكل»[3].

(1) Ibid: ch XvIII, 91, p 53.

(2) philo: special laws, ch iv, 13, p 313.

(3) ibid: ch vI, 28, p 323.

الوصية الرابعة:

الوصية الرابعة تلقى الضوء على تقديس اليوم السابع ـ تقديس السبت ـ حيث خلق الله الكون فى ستة أيام واستراح فى اليوم السابع ليتأمل صنعة يده، وإن كانت ظهرت قبل ذلك الأهمية الكوزمولوحية لليوم السابع حين تحدثنا عن خلق العالم. إلا أن فيلون يرى فى تقديس يوم السبت جانب أخلاقى. هذا الجانب يتجلى فيما يأتى فى عبارة مؤداها «إن الله الأبدى قد استراح فى اليوم السابع من صنع يديه، فبالأحرى أن يتوقف الإنسان عن طلب المزيد من الأشياء الضرورية فى حياته ويأخذ راحة من متطلباته. إن هذا اليوم أقدس يوم عند الله، وتقديس هذا اليوم هو أعلى درجة من درجات التدين، إن الكتاب المقدس يحثنا على أن نتبع الله، ففترة الأيام الست هى فترة العمل التى خلق فيها العالم، من البديهى أن نأخذ هذه الفترة كنموذج لنا أيضًا فى حياتنا العملية، ونأخذ اليوم السابع لدراسة الحكمة وتقويم الذات، إذًا لا نهمل الحياة بشقيها العملى والتأملى، فكليهما محور الحياة، ويجب أن يظلا محفورين فى قلوبنا موضع العقل لا القول»[1].

يعنى ذلك أن هناك دلالة ضمنية أخلاقية ليوم السبت عند فيلون قائمة على جعل الله نموذجًا للأخلاق فإذا كان قد استراح فى اليوم السابع فجدير بالإنسان أن يتخلق بأخلاق النموذج. وإذا كان النموذج فى اليوم السابع يتأمل ذاته، فعلى الإنسان أيضًا أن يقوم ذاته بعد ست أيام متواصلة. لأن الهدف من اليوم السابع كما يقول فيلون: «هو أن يستريح الإنسان من العمل ويجدد نشاطه كالرياضى الذى يحصل على قسط من الراحة ليجدد نشاطه، لقد أعطى الله الإنسان هذا اليوم لممارسة أنشطة منها دراسة مبادئ الأخلاق»[2].

(1) philo: Decalogue, ch xx, 100-101, p 57.

(2) philo: Special lawsII, chxvI, 60-61, p 345.

وقد يذهب فيلون أكثر من ذلك حين يقرر «بأن يوم السبت لم يشرع للإنسان فحسب، إنما شرع يوم السبت أيضًا لراحة الماشية وللعبيد، لأن العبيد ليسوا عبيدًا بالطبيعة، والحيوانات من عبيد الإنسان خلقت ولديها استعداد فطرى لخدمة الإنسان»[1]. وهذه النظرة الأخلاقية من جانب فيلون نظرة أخلاقية كونية تنبع من مذهبه الإنسانى الذى يرى أن الحيوان حياة تريد الحياة وسط حياة تريد الحياة.

من خلال هذه النظرة الأخلاقية ليوم السبت يتفتق عن هذه النظرة ثلاثة مفاهيم: الأول، مفهوم الخلق، الثانى، المفهوم الاجتماعى والإنسانى، الثالث، مفهوم التحرر من العبودية بخروج بنى إسرائيل، فالمفهوم الأول قد أكد خلق العالم وقدرة الله، والثانى قد رسخ المفهوم الاجتماعى والإنسانى للسبت فى قلب اليهودى من خلال تلك المشاعر والأحاسيس الدافئة التى تمتلك فى هذا اليوم. فى إحساسه القوى بالمشاركة الجماعية، وحثه على البر والإحسان، والميل إلى فعل الخير، وحماية الضعفاء والفقراء والمظلومين والمضطهدين. والمفهوم الثالث رسخ فيه فيلون مفهوم التحرر من العبودية، وهو لا يعنى العتق من العبودية ولكن الرحمة بها، حيث لم يخلق العبد عبدًا[2]. وقد استفاض فيلون فى المفهومين الآخرين فى كتابة «الشريعة الخاصة» لتأكيد أهمية يوم السبت الأخلاقية.

الوصية الخامسة:

وهذه الوصية هى أخر وصايا المجموعة الأولى، وهى تنظر فى طاعة الوالدين على أنه «التدين الحقيقى وأهم عناصر الأخلاق، لأن الوالدين هما

(1) Ibid. chxvI, 70, p 351.

(2) The universal Jewish: Volg, KTAV publishing House inc, New York, 1969, p295

خدام الرب فى مهمة إنجاب الأطفال ومن لا يكرم الخادم لا يكرم الرب. بعض النصوص الجريئة تبجل الوالدين كأنهما ألهه لأنهما يتشبهان بالرب الخالق سبب وجود هذا الكون، فهما يوجدان الإنسان إلى العالم»[1].

«إن الوالدين من خلال طبيعتهما عند فيلون يقفان على الحدود بين الجانب الأبدى والجانب الفانى من حيث الكينونة، فهما كائنات فانية بسبب صلتهما بالإنسان والحيوان ولكونهما عرضة للفناء وفساد الجسد، وهما أيضًا ذوا طبيعة أبدية لتوالدهما الذى يربطهما بالرب سبب هذا العالم».

بعض الناس يرتبطون بجانب واحد من هذين الجانبان ـ الفانى أو الأبدى ويتجاهل وجود الأخر ويحاولون أن يفضوا رغباتهم عن طريق صداقات مع الآخرين غير مدركين الجانب الأبدى للوالدين إن من يسير فى الجانب الفانى لفض رغبته يسير فى طريق عدم التقوى، ويمضون قدمًا نحو الحيوانية. وهم أعداء لتلك الوصايا التى أعلنها موسى، ومدانون من محكمتين الأولى، المحكمة الإلهية فهم يدانون بالالحاد وعدم التدين، والثانية، المحكمة الإنسانية وهم مدانون فيها بالوحشية وعدم الإنسانية[2].

وبعيدًا عن الحياة الأبدية والفانية صاغ فيلون مثلًا من الطبيعة يلزم الإنسان على احترام والدية مجسدًا العلاقة بين الأبناء والأباء فى الطيور «تلك الطيور تتجمع لأنها فى حاجة إلى والديهم، فى المقابل الطيور الصغيرة تطير بحثًا عن الطعام وتعود به إلى العش لتغذية والديهم الذين تقدموا بالسن، ويرون من الواجب أن يردوا الجميل إلى والديهم، فهذه الطيور بدون معلم، تستخدم غريزتها فى رد الدين لبعضهم البعض، أرى أن الإنسان أمام هذا المثل يتوارى خجلًا ويخفى وجهه، خاصة من لا يحترمون أبائهم»[3].

(1) philo: Decalogue, chxxiii. 120. p 67.

(2) Ibid: chxxii, 108-110, p 61 -30

(3) Ibid: chxxiii, 117, p 67.

هذا النموذج الطبيعى الذى صاغه فيلون لاحترام الوالدين نموذجًا أخلاقيًا من الطبيعة، لا يخفى داخله عودة الأخلاق إلى الدين، حيث يرد الأخلاق إلى الغريزة التى فطرها الله فى الطيور، لأنه يرى أن الطيور بلا معلم. إن كانت الأخلاق كذلك عنده، فإنه يصيغ مثالًا جدليًا من الطبيعة، جديرًا بالإنسان أن يتوارى منه خجلًا، وهو فى هذا الصدد، يختلف عن رسو حينما رد الأخلاق إلى الطبيعة، وحاول أن يخرج الإنسان إلى الحالة البدئية لتعديل الأخلاق، والاختلاف بين فيلون ورسو يبدو فى هذه الحالة. فى أن فيلون يرد الأخلاق إلى الشريعة والفطرة التى تحمل بدايات الشريعة، أما رسو فإنه يرد الأخلاق إلى الحالة البدئية، الحياة البدائية الأولى حيث كان يعيش الإنسان بلا تقدم ولا علوم مرتكزًا على معادلته الفلسفية القائلة «كلما زادت الفنون والعلوم زادت الرذائل». أعنى، أن رسو قصد أن الأخلاق تتم أو تصل إلى حالة الاكتمال إذا عادت إلى الطبيعة الأولى[1].

وهذا الاختلاف يحمل فى باطنه تشابهًا بين القطبين ـ فيلون ورسو ـ حيث قرر فيلون سلفًا أن حياة المدن مليئة بالرذائل والشرور، وحاول الناس أن يعبدوا أعمال أيديهم وعقولهم أو ما أنتجت عقولهم من فنون وآداب، وقرر الهروب من هذه الحالة إلى الصحراء لتلقى الشريعة وخلاص النفس[2].

وبهذه الكلمات تكون طاعة الوالدين سلوكًا أخلاقيًا منبعه الدين عند فيلون حتى وإن ساق له أمثلة من الطبيعة، وهذه الوصية كمثيلاتها السابقة تقديس يوم السبت، القسم باسم الرب كذبًا، وهجر عبادة الأوثان وعبادة الله الواحد. تمثل عبادة، أو نظام أخلاقى ينظم العلاقة بين الله والإنسان من ناحية وبين الإنسان والكون من ناحية أخرى. ويترتب على هذه العلاقة

(1) د/ محمد حسين هيكل. جان جاك رسو: حياته وكتبه ـ دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة. 1978. ص 67.

(2) philo: Decalogue, chi, 7, p 9.

المزدوجة لطاعة الوالدين «ثوابان أو جائزتان هما امتلاك الإنسان للقيم الطيبة، والثانية هو الخلاص من الموت بأن يمنحه حياة أبدية»[1].

المجموعة الثانية:

هذه المجموعة تنظم الشريعة الكونية بين الإنسان والإنسانا والإنسان والكون. وهى مجموعة من النواهى والتحذيرات موجزة فى خمسة وصايا (لا تزن، لا تقتل، لا تسرق، لا تشهد زورًا، لا تشته). ومجملها يبنى مذهبًا أخلاقيًا على الدين وهى على النحو الأتى:

الوصية الأولى: (لا تزن)

جاءت هذه الوصية فى المرتبة الأولى على حد تعبير فيلون «لأن المتعة هى قوة تسيطر على كل سكان العالم، ولا أحد يستطيع أن يهرب من هذه الجريمة أو الخطيئة، فإن مخلوقات الأرض والسماء والماء تتعامل معها باحترام لأنها من صنع الطبيعة، وتتعرض للنقد إذا انحرفت عن مسارها الطبيعى»[2]. فى شكل الزنى.

وسبب هذه الرغبة أو المتعة هو «الجسد الذى يجب أن يلام على هذه الرغبة الشديدة للجنس وليس الروح. لأن الجسد يحتوى كمية كبيرة من النار وهى السائل المنوى، تلك النار التى تحرق المادة وتحتاج إلى المزيد فى الأعضاء التناسلية. وتكون مسئولة عن الحساسية الشديدة فى الانغماس فى الزنى»[3].

هذا التصرف المشين ـ الزنى ـ يدمر الجسد والروح معًا، ويجعل الإنسان يتخلى عن كل قيم الحياء، هذه الشهوة تأكل كل شىء فى حياة الإنسان مثل النار التى لا تخمد، بل فى حالة استعار دائم.

(1) philo: Special lawsii, chxi- vii, 262, p 471.

(2) philo: Special laws III, chii, 9, p 479.

(3) Ibid: chii, 10 11 -, p 421.

وخطورة هذه الجريمة اللاخلاقية يكمن فى أنها لا تقتصر على الزانى فقط إنما تعلم شخص أخر كيف يرتكب الخطيئة، لأنها لا تتم إلا بطرف أخر لتنفيذ العمل المخجل، أحد الطرفين يمثل المعلم، والأخر يمثل التلميذ، الذى هدفه أن يثبت أقدامه فى الخطيئة والتورط فى الزنى. والزانية لا يفسد جسدها فقط، بل روحها بشعورها بالاغتراب عن زوجها وكرهها نحوه، ونبذه عن حياتها، وهذا السلوك ـ الزنى ـ يؤدى إلى مشكلات ثلاث وهى الزوج الذى يعانى فى إيمانه لعدم زواجه الشرعى الذى يهدف منه إنجاب الأطفال، أو أنه أصبح غير قادر على التمسك بوعوده، والمشكلة الثانية، هى الزانى والزانية فى انغماسهم فى الشهوات التى قد تمتد إلى أشخاص آخرين أو الأقارب. والمشكلة الثالثة، هى الأطفال نتيجة هذا الزنى، وخاصة الزانية إن كانت غير ظاهرة، فإن حقيقة هذا الطفل لم تعرف، ولا يعرف الزانى الطفل نتيجة الزنى، كالرجل الأعمى الذى لا يعرف مكائد هؤلاء الزوانى فيكون مجبور على رعاية أطفال هؤلاء الزوانى كما لو كان من لحمه ودمه[1].

ومكمن الخطورة هنا كما يعرض له فيلون يظهر من أن الزنى تدمير للأخلاق عامة فهو تدمير للذات نابع عن الأثرة وإرضاء الشهوة أو الرغبة، كما أنه تدمير للأخر لأنه يقع بين طرفين، وتدمير أيضا للنتيجة وهو الطفل السفاح، إلا أن الغريب فى هذه الخطورة أن يتحدث فيلون عن الاغتراب، لأن مفهوم الاغتراب مفهوم متقدم على فيلون، والاغتراب[2] الذى عُنى به هو الاغتراب الدينى أو الانفصال عن الله، وفى هذا الإطار يمكن العودة

(1) philo: Decalogue,ch xvlll, 6o, p 51.

(2) هنا استخدامات كثيرة للفظة الاغتراب. فلها استخدام نفسى واجتماعى ودينى، فالنفسى والاجتماعى يتعلق بما يحدث للفرد من اضطرابات نفسية تجعله فى غربة عن الآخرين، ويرتبط هذا المفهوم بالاغتراب الاجتماعى، لأن المغترب نفسيًا مغترب اجتماعيًا، مغترب عن ذاته وعن الآخرين. انظر د/ أمل مبروك، مشكلة الإنسان فى الفكر المعاصر، دار الوفاء. الطبعة الأولى، إسكندرية 1999م ص 108.

ـ بظاهرة الاغتراب إلى أفكار العهد القديم فى سفر التكوين. خاصة فى الدراما الإنسانية المتعلقة بخلق آدم وانفصال حواء من أحد ضلوعه والهبوط من الجنة إلى الأرض[1]. حيث تلتقى بأول اغتراب فى الكون أو على وجه الدقة، أول انفصال وأول ثنائية حقيقية. فحواء هى جزء من آدم لكنها غدت الآن جزءًا منفصلًا، وبمعنى آخر جزءًا مغتربًا.

إن فيلون هنا يمثل لحظة حاسمة فى تاريخ الوجود الإنسانى، خاصة وأنه قد استخدم لفظة الاغتراب وقد عنى بها الخطيئة sin. «وقد جاءت الكلمة فى الترجمات والشروح اللاتينية للكتاب المقدس، وبخاصة العهد الجديد وفى المواضع التى تتناول فكرة الخطيئة بوجه خاص. والخطيئة بحسب التصور الدينى فى الكتاب المقدس ليست مجرد تعدى على شريعة الله وأحكامه وإنما هى فى جوهرها انفصال عن الله»[2].

وإن كان فيلون يرى أن خطيئة الزنا تدميرًا للذات، ومن يقوم بها على وعى بذاته أو بفعل الزنا متعمدًا فإن ذلك الوعى يضع ذاته وسط وجود يتعلق بالخطيئة أى إنسان يعى الانقسام العميق داخل ذاته، أو بعبارات كيركجاوردية ـ نسبة إلى كيرجارد ـ «يقف الإنسان وحده بسبب الخطيئة أمام الله. وهذا الوعى قد يكون موضوعًا للعظة والعبرة ويمكن أن يكون موضوع تأمل صامت يقوم به ويضعه وجهًا لوجه أمام ذاته الخاصة. والإنسان قبل الخطيئة ليس أنا ولا يصبح أنا إلا فى الخطيئة وبواسطة الخطيئة»، كما يقول كيركجورد: عندما تدرك الذات أنها موجودة أمام الله فإنها تصبح لا متناهية، وفى هذه الحالة تعرف أنها خاطئة[3].

---

(1) philo: Decalogue, chxxiii - chxxiv, 125 130 -, p 67-69.

(2) د. محمود رجب: الاغتراب، سيرة مصطلح، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة، 1986 ص 38.

(3) ريجيس جوليفية: المذاهب الوجودية من كيركجورد إلى جان بول سارتر، ترجمة د/ فؤاد كامل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرية، 1982، ص 20.

ورغمًا من هذا الوعى بالذات فى حالة الاغتراب عند فيلون فإن الإنسان يرتكب الخطيئة، فإنه يرتكب الزنا فى الخفاء، وهو لا يدرك أن ما يفعله فى الخفاء يدركه الرب، فالله يدرك وعى الذات بالذات والخفاء[1].

وبعيدًا عن هذا العذاب الذاتى ـ انفصال الذات عن المجتمع وعن الله ـ فإن العذاب الدينى أو الجزاء فى الشريعة اليهودية هو الرجم حتى الموت أو اللعنة[2].

وقد ساق فيلون نموذجًا لهذه اللعنة ممثلًا فى الفارسيين والقدماء اليونانيين الذين مارسوا جريمة الزنى، أن جعلهم الله فى حالة حرب ضد أنفسهم وضد الآخرين، وقد وازى فيلون بين انغماسهم فى الشهوة مع انغماسهم فى الحملات الحربية والمعارك الدائمة[3].

ونهاية فإن هذه الوصية ـ لا تزن ـ صاغها فيلون ما بين الجزاء والثواب، وأثارت فى جنباتها مدلولات إنسانية تغيب عن الفلسفة اليونانية ـ الاغتراب الدينى ـ وقد تعرض فيلون لجريمة الزنا بإطناب فى كتابه الشريعة الخاصة متحدثًا عن أنواع الشذوذ والزواج وقوانين الزواج بقدر يهم دارس الفكر العبرى لا الفلسفة.

الوصية الثانية: (لا تقتل)

يقول فيها فيلون «إن الطبيعة قد جعلت الإنسان متميزًا عن الحيوان بأنه اجتماعى، وأعطته الحق فى تكوين صداقات تميزه عن باقى الكائنات بالفعل، هذا الرباط الذى يقود الإنسان نحو تبادل المشاعر، وأن الإنسان الذى يقتل أخر يخرق قانون الطبيعة، بالتأكيد، هو مذنب بتدنيس هذا الجسد

(1) philo: Special laws III, chx, 52, p 509.

(2) Ibid: chiii, 13, p 481.

(3) Ibid: chiii, 18, p 485.

المقدس، لأنه قضى على الروح أقدس ما أعطاه الله للإنسان.....، فالروح بالتحديد أقدس ما يمتلكه الإنسان فى حياته، فهى تتشبه بالسماء، وهى أطهر كائن فى الوجود، فالإنسان بهذه الروح على صورة الله فى الأرض»[1].

ويعنى ذلك عند فيلون أن القتل عمل لا أخلاقى ويمثل خروج عن مسار الطبيعة، لأن القاتل فى نظر الشريعة هو الذى يرتكب القتل فى النفس البشرية وهذا الفعل انتهاك لحرمة الشريعة، وربما يكون أسوأ الانتهاكات[2].

وهذا الفعل اللأخلاقى عند فيلون لا بد أن يكون جزاءه من جنس عمله «فمن يرتكب هذا السلوك المشين يعاقب بالموت، وهو يستحق الموت ألف مرة، فالجريمة غير قانونية، ولكن العقاب قانونى بدرجة كبيرة»[3].

«ومهما هرب القاتل فإنه لا يستطيع أن يهرب من المحكمة الإلهية، فهذه المحكمة تكشف عن الدوافع والنوايا الخفية للقاتل، والرب يملك أن يعفو عنه بعدله»[4].

الوصية الثالثة: (لا تسرق)

السرقة عند فيلون هى « حب امتلاك الغير الذى يمتد إلى ما لا نهاية ومن يسرق لا يكترث بالعقاب لأنه يعتقد أنه فوق القانون، فالسارق فهم عقلية مسيطرة تحب أن تكون فى مركز القوة، ويحدوه حب الطموح والسيطرة على الآخرين، لما كان الأمر كذلك فإن الإنسان يجب أن يتعلم من السنوات الأولى أن لا يسرق من الآخرين، مهما كانت السرقة صغيرة فى نظر الطبيعة كبيرة»[5].

(1) philo: Decalogue, chxxv, 133 134 -, p 73.

(2) philo:special laws iii, chxv, 82, p 527.

(3) Loc cit.

(4) philo: On Numbers, chxxxv, 6, p 111. and see also, special laws iii, chxxi, 122, p 553.

(5) philo: Decalogue, chxxvi, 137, p 75.

ويدلل مفهوم السرقة عند فيلون كوصية بأنها عمل لا أخلاقى وهى مضادة للطبيعة أو الغريزة أو الفطرة التى أوجدها الله.

الوصية الرابعة: (لا تشهد الزور)

قد نهى الرب عند ارتكاب هذه الخطيئة لأن من يقسمون زورًا يخفون الحقائق، وهم مذنبون ومضادين أيضًا للطبيعة، بإفسادهم الحقيقة التى أغلى ما يملك الإنسان فى حياته، والتى بمثابة الشمس التى تضئ ما يخفيه الظلام، فالشاهدين الزور يحلفون أنهم سمعوا ورأوا وما سمعوا وما رأوا، وهم يرتكبون خطيئة من أكبر الخطايا، خاصة وإذا علمنا أن القسم هو أداة المحلفين للفصل فى الدلائل، وبناء عليه تصدر الأحكام، إن هذا السلوك الأخلاقى يصل فى مرتبته إلى الإلحاد وعدم التدين، لأنهم يحلفون بالصدق وهو كذبًا مستخدمين الخداع، وهو سلوك متعمد من جانبهم[1].

الوصية الخامسة: (لا تشته)

هذه الوصية تنهى الإنسان فى الانغماس فى خطيئة الرغبة وهى خطيئة مدمرة بشكل مخيف، لأن كل العواطف ـ الانفعالات ـ الشريرة التى للروح والتى تثير الروح تهزها من مكانها الطبيعى وتجعل منها روح مريضة، والأخطر من هذه الانفعالات الشريرة الرغبة، لأن الانفعالات تتواجد فى أنفسنا دون قصد، ولكن الرغبة توجد فينا بشكل متعمد[2].

وهذه الرغبة تبدو لعقلنا أنها شىء جيد، يوقظ النفس وهى فى حالة الراحة فهى مثل الضوء الذى يقع على العين، فيقوم بإثارة العين، وهذه الإثارة للنفس تسمى متعة. فعندما يدخل الشر للنفس أو الروح، فإنه يملى

(1) ibid: chxxvii, 140 141-`, p 77.

(2) Ibid: ch xxxiii, 142, p 77.

الروح بالحزن والكآبة والإحباط. حتى وإن اقترب الشر منا فإنه يثير القلق والخوف والحزن[1].

وهنا يقرر فيلون أن الاشتهاء لا أخلاقى أيضًا، ولكنه فى نفس الوقت يفرق بين مصطلحات ثلاثة يمكن أن تتشابه مع بعضها البعض، فهناك فارق بين الانفعال الذى ينتج دون قصد والرغبة التى تنتج عن القصد، وهناك فارق أيضًا بين الرغبة والمتعة. وهو فى هذا الصدد يأسس نظرية فى الانفعالات حتى وإن كانت بسيطة المدلول.

ونهاية الوصايا العشر التى صاغها فيلون فى مذهب أخلاقى دينى يهودى قد انقسمت إلى وصايا إلهيه تدور حول أحكام الرب، وتعلن أنه من الأخلاقى أن يكون هناك حاكمًا واحدًا يقود العالم وهو خالق له ومن الإلحاد وعدم التدين الإيمان أو الاعتقاد بغير ذلك، أعنى أن هذه المجموعة من الوصايا تدور حول مذهب واحدى ـ هو الله ـ وتنبذ الكثرة أو التعددية التى اختلقها العقل البشرى وعبدها. أما المجموعة الثانية فهى تدور حول ما يقترفه الإنسان مع الإنسان ويسيئ به إلى الرب.

وكلتا المجموعتين جاءتا شاملتين كمقولات أرسطو، حيث لا يوجد شىء فى الطبيعة إلا ويشترك فى هذه المقولات[2].

إن من يتبع هذه الوصايا هو الإنسان المتدين والتقى والأخلاقى لأنه متأكد أنه ينال بركات الرب، وحفظه له من الشرور، وهو أما أنه يحصل على الجائزة أو أنه قد حصل عليها[3].

وعلى عكس الإنسان المتدين، الإنسان الذى لا يتبع الوصايا فقد اتهمه

(1) Ibid: ch xxx iii, 143, p 79.

(2) Ibid: chviii, 31, p 21.

(3) philo: The worse Attackt the Better, ch xxii, 120, p 283.

فيلون بالإلحاد، ومرد هذه التهمة إلى أن الوصايا العشر الأخلاقية هى وصايا إلهية تصل إلى حد الاعتقاد بالألوهية، فالشخص اللاأخلاقى فى نظر فيلون شخص ملحد وغير متدين. وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على أن فيلون قد أسس الأخلاق على الدين، مع ملاحظة أن الأخلاق الفيلونية أخلاق عملية بعيدة كل البعد عن أخلاق النظر ـ النظرية اليونانية. فهو على خلاف كل القضايا السابقة يحاول أن يبعد الأخلاق اليونانية عن مذهبه الأخلاقى.

تعقيب

تعد فلسفة فيلون الأخلاقية تحولًا جديدًا فى الأخلاق قياسًا بما عليه فلسفة الأخلاق اليونانية، فإذا كانت فلسفة الأخلاق عند اليونان قد أرتبطت بالطبيعة وتوقفت على الجانب النظرى بإستثناء الإتجاه الرواقى والأبيقورى إلا أن فلسفة الأخلاق عند فيلون لا تنفك عن تصوفه أو الحياة الباطنية الداخلية، أعنى، الحالة الصوفية التى وصل إليها وإذا كان أرسطو قد رأى أن الأخلاق ممثلة فى الفضيلة التى هى الوسط العادل ـ وسط بين طرفين ـ وعند أفلاطون تتمثل فى المثال، إلا أن فيلون بأفلاطونيته يختلف عن السابقين لأنه تعلق بعالم المعقول أكثر عقلانية من أفلاطون، فالعالم المعقول عنده يرتبط بالألوهية ـ حالة الإرتباط بين الإنسان والله بمفهومه الواحد، أعنى، أن الأخلاق جاءت عنده مبنية على الدين.

ورغم أنها فلسفة جديدة فى مضمونها من حيث إحتوائها على فكر دينى أخلاقى من الموروث اليهودى إلا أن عباراتها جاءت فى صيغ يونانية يغلب عليها الطابع الفلسفى المجرد من جهة والتأويل الرمزى من جهة ثانية، وخاصة الشروح المطولة التى قدمها فى كتاب الوصايا العشر، وكتب الشريعة الثلاثة، والمجازيات الثلاث.

إن تأسيس الأخلاق على الدين عند فيلون ممثل فى جانبين: الأول

هو الضمير الذى يمثل علاقة داخلية كائنة بين الله والإنسان، وما يتبع هذا الضمير من مفاهيم كالأمل والتوبة اللذين يمثلان طريقًا للخلاص، الثانى، مجموعة الوصايا العشر التى تنقسم إلى مجموعتين: المجموعة السيادية (ألا نعبد غير الله، لا يعبد الإنسان الأصنام، لا تقسم بإسم الرب باطلًا، تقديس يوم السبت، طاعة الوالدين). والمجموعة الثانية، مجموعة التحذيرات (لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشته، لا تشهد زورًا).